المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين

هذا المقال يتناول قطاعاً صغيراً من تاريخ طويل لإقليم فسيح ، وهو غرب إفريقيا .

كان هذا الإقليم فى العصور الوسطى جزءاً من عالم إسلامي واسع ، تربطه أوثق الصلات بدولة المماليك فى مصر ودولة الشرفاء فى مراكش . وتبادل هذا الإقليم مع هاتين الدولتين عدداً كبيراً من الطلاب والأساتذة والمؤلفات ، وشهد قيام مدن كانت حواضر للثقافة الإسلامية العالية ، كما شهد دولا إسلامية تنفعل بالحضارة الإسلامية وبالجهاد. ولم تنفصم عرى هذه الصلات الوثيقة إلا بسبب الغزو الاستعمارى ، وتقسيم القارة الإفريقية فى القرن التاسع عشر .

وأدت الجماعات الإسلامية فى غرب إفريقيا دوراً رائعاً فى التاريخ المعاصر ، فكانت مثلاطياً للصمود الإفريقى أمام جماعات المستعمرين، وكانت نظم الإسلام وحضارته مما ألهم هذه الجماعات الصمود والمقاومة بفضل دينهم . وقنعت الجماعات الإسلامية أولاً بالانطواء والعزلة ،مع الاستعداد للنهوض ، ولذا اعترف كل من المؤرخان ترمنجيهام وميك بأن الحضارة الإسلامية كانت الخطر الخفى الذى واجهه الاستعمار .

ثم لاحت نذر التحرر فى القارة ،وبدأت قبضة الاستعمار تتهاوى، فكانت الجماعات الإسلامية هى التى غذت حركات التحرير، بزعامات وقيادات لم يمسسها الاستعمار بمغرياته، فقامت هذه الجماعات من وراء الأحزاب الوطنية تمدها بالتأييد والمساندة ، وقدمت للحركة الإفريقية قيادات لا تزال ماثلة لنا حتى اليوم ومنها سيكوتورى والمرحومان وأبو بكر تيفاوا باليو أحمد وبللو .

وهذه الجماعات الإسلامية التى يقدر عددها اليوم بأكثر من ثلاثين مليون نسمة سوف تقوم بدور عظيم فى مستقبل هذه القارة ، وفى تحقيق الوحدة الإفريقية ،

وتأكيد أواصر الصداقة التقليدية ، وهو واضح من الصلات النامية بين نيجيريا ومالى والسنغال وغينيا ، وغيرها من البلاد .

ولعل هذا كله يدعونا إلى أن نتدبر الماضى ، ونتعمق وراء هذا الميراث، باحثين عن جذوره الأولى، وكيف ضربت فى الأرض، وأنبتت هذه الثمرات المباركات .

والجنود المجهولون فى هذا الميدان هم جماعات الطوارق أو الملثمين ، أو صنهاجة الرمال أو صنهاجة الجبل الثانى ، كما يقول ابن خلدون ، . وكان دور هذا الجماعات دوراً شبيهاً بدور العرب فى النوبة والسودان، أو دور الأعفار والدناقل والجالا فى شرق إفريقية ، إذ قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى وغرب إفريقية ، وهم الذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات، وكانوا العامل التوجيهى لتاريخه وثقافته .

كانت هذه القبائل تنتشر فى وطن فسيح يمتد من غدامس فى طرابلس إلى المحيط الأطلسى ، كما يمتد فى المناطق الصحراوية التى تلى جبال درن وامتد هذا الوطن كذلك من جبال أطلس الكبرى حتى مصب نهر السنغال، بل امتد أحياناً إلى مقربة من منحنى نهر النيجر، ومن هذا النهر صوب الشرق، إلى مدينة تاد مكة فى قلب الصحراء الكبرى. وأحصى ابن خلدون من هذه القبائل نحو السبعين، لكن يكفى أن نشير إلى الأحلاف والمجموعات القبلية الكبرى ، وإلى الوطن الذى تنزله ، لأن وجودها فى هـذا الموقع أو ذاك حدد لها دوراً واضحاً فى تاريخ هذه المنطقة الشاسعة .

وأول هذه الجماعات قبائل لمطة وجزولة التى نزلت قرب المغرب الأقصى، من جبال درن حتى وادى نول على المحيط، ثم قبائل لمتونة المنتشرة جنوبا حتى رأس بوجادور، أما قبيلة جدالة فتمتد ديارها جنوب قبيلة لمتونة حتى مصب السنغال ، على حين تنتشر بطون قبيلة مسوفة فى المناطق القاحلة الممتدة صوب الغرب .

وكان يقابل هؤلاء وأولئك جماعات من الزنوج اتصلت بهم، وتعاملت معهم ، وتعرضت لإغاراتهم أحياناً ، أو لدعوتهم المسالمة أحياناً أخرى ، ودخلت معهم فى معاملات ومبادلات جماعات التيوكولور ، والولوف ، والسرير، وكلها فى جنوب السنغال مباشرة . وعلى الضفة اليسرى من النيجر نزلت جماعات الفلاحين

من السنغاى ، وبين وأولئك وهؤلاء نزلت الشعوب المتكلمة بلغه الماندى ، وتسمى أحياناً بجماعات الماندنجو .

وكانت اتصالات الطوارق بهذه الأوطان وهذه الشعوب ظاهرة واضحة منذ القرن الأول الميلادى تقريبا ، ولـكن هذه الاتصالات لم تكن تتجاوز أبداً أنواع الانتقالات الموسمية ، ثم الاحتكاك ببعض المراكز الأمامية التى أنشأتها الشعوب الزنجية ، أو إغارات خاطفة على أوطان هؤلاء الزنوج ، لاقتناص العبيد وحملهم إلى أسواق المغرب أو البحر الأبيض المتوسط .

وظل الحال على ذلك حتى كان القرن الثالث الهجرى ، ثم شهد المغرب تطوراً جديداً ، حين رسخت به قواعد الإسلام ، ووضحت معالم المدرسة المالكية فى القيروان ، فى ظل الأغالبة فى تونس . وكان الأغالبة فى تونس يجاهدون فى صقلية والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت مدينة فاس قد أضحت فى ظل إلادارسة قاعدة هامة فى نشر الثقافة العربية الإسلامية .. وغدا الجهاد فرضاً على هذه الإمارات الناشئة ، تكتسب منه تراثها ووجودها ، فاذا كان جهاد الأغالبة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان جهـاد الأدارسة صوب جنوب المغرب الأقصى إلى ديار الملثمين . وعكف الأدارسة على الدعوة الإسلامية بين ديار الملثمين ، واستطاعوا فى القرن الثالث الهجرى أن يمدوا نفوذهم إلى مدينة أغمات والسوس الأقصى وبلاد نفيس وصنهاجة الرمال ، وتأكد إسلام الطوارق فى القرن الثالث الهجرى ، ودخلوا فى الاتحاد الذى أقامه الأدارسة بزعامتهم .

وأحدث تمكن الإسلام منهم على هذا النحو تغييراً جذرياً فى حياتهم ، بل فى تاريخ المنطقة كلها ، فلم تعد القبائل تنصرف إلى الجنوب ، كما كانت تفعل دائماً بل تحركت بدافع للجهاد وتأكيداً لإسلامهم الجديد . وكان هذا أشبه بتحول الاعفار والدناقل إلى الإسلام ، وانصرافهم إلى الإغارات المتلاحقة على حافة الهضبة الحبشية . وقد أدى إسلام هذه القبائل إلى قيام حلف قوى جمع قبائل الطوارق كلها بزعامة لمتونة ، وكان هذا التوحيد نذيراً بموجة من التوسع صوب الجنوب ، والاصطدام بمملكة غانة ، كما اصطدمت القبائل العربية المندفعة من مصر بممالك النوبة المسيحية .

ومملكة غانة هذه أسستها قبائل الماندى أو الماندنجو، وتبادل الزعامة وإياها أحياناً قبائل السوننكه . واسم غانة هو الذى اتخذته الجمهورية الإفريقية الحديثة اسماً لها ، إحياء لهذه الذكرى القديمة وهو، اسم كان يطلق على الطبقة الحاكمة ، ثم أصبح علماً على العاصمة التى الماندنجو، أسسوها، وحدد المؤرخون ظهور هذه المملكة الإفريقية الخالصة بعام ٣٠٠ ميلادية ، بسبب يأثيرات وصلت من الخارج لم يحدد كنهها . توسعت هذه الدولة فى السنوات الممتدة من القرن الرابع الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى ، من منحنى النيجر حتى أطراف المغرب الأقصى . ثم استولى السوننكه على الزعامة فيها سنة ٧٧٠ م ، وتم لهذه الدولة إخضاع منطقة فوتا حيث قبائل الولوف والسريروالتكرور، وبلغت هذه الدولة أوج اتساعها فى القرن الحادى عشر .

ثم بدأ الطوارق منذ إسلامهم يشنون حرباً لاتنقطع على مملكة غانة ، ووصل لاشتباك إلى ذروته مرتين ، عام ٣٠٧ هـ ، مرة أخرى وعام ٤٠٧ هـ ، وخل الطوارق واحة أودغشت الغانية أكثر من مرة ، وفرضوا الجزية على المغلوب ، وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يستأصلوا غانة نهائياً من الوجود الإفريقى فإن حركاتهم أدت إلى وصول الإسلام إلى ديارهم خلال القرن الحادى عشر .

وزار البكرى الرحاله هذه البلاد عام ١٠٦٧ ميلادية ، وذكر أن بالعاصمة اثنى عشر مسجداً وعدداً من الفقهاء وأهل العلم ثم ستأنف الطوارق النضال ضد غانة مرة أخرى عام ٤٢٩ هـ، وفتحوا ثغرات فى المجتمع الغانى ، ونفذ من خلالها التيار الإسلامى منطلقاً نحو الجنوب حتى حوض السنغال الذى قدر له أن ينفعل انفعالا إسلامياً ينبع من ترابه وأرضه، شانه فى ذلك شأن كل قطر تستظله الراية الإسلامية ، وتستهويه الحضارة الإسلامية .

وهنا تنتقل هذا إلى القرن الخامس الهجرى الذى شهد خروج قبائل الطوارق والسنغال على مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى كله . وهكذا هو القرن الذى شهد تطوراً على الجناح الشرقى لدار الإسلام ، إذا اندفع السلاجقة من وراء النهر إلى بغداد لتخليص الخلافة السنية من البويهيين المتشيعة ، ثم اندفعوا إلى قلب آسيا الصغرى وأحرزوا للاسلام نصره الكبير .

وجرت أحداث مشابهة على الجناح الغربى لدار الإسلام حيث وجد زعماء قبيلة جدالة من الطوارق أنفسهم ، أمام تجربتين عظيمتين ، أو محاولتين كبيرتيين ، للقضاء على غانة غير أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً ، بسبب سرعة تفرق الأحلاف التى تلم شعثهم ، وتوحد صفوفهم ، ورأوا أن الوحدة لن يتم إلا بدعوة دينية تنبثق من صفوفهم .

ولذا استقدم زعيمهم جدالة فقيهاً مالكياً من صناع التاريخ ، يدعى عبد الله ابن ياسين وأخذ هذا الرجل أخذ يبث الدعوة الاسلامية على مذهب المالكية ، ولكنه لم يلبث أن وجد سياسة الوعظ لا تجدى ، فآوى إلى رباط فى جزيرة نائية فى مصب السنغال ، وعاش عيشة الزهد والتقشف . وتسارعت إليه الصفوة ، ثم زاد أتباعه من المرابطين ، وعكفوا على الرياضة الروحية والبدنية ، وتعليم الإسلام الصحيح والقول بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بلسانهم أضعف الإيمان بل بأيديهم وأسلحتهم علما منهم بأن هذا هو النهج السوى لإصلاح حال الطوارق وجمع شملهم .

وشن عبدالله بن ياسين حرباً على غانة فى الجنوب واشتبك مع بقيتها فى قتال عنيف انتهى بدخوله مدينة أودغشت حالفه التكرور فى هذا الجهاد بعد أن حسن إسلامهم .

ثم اندفعت موجة من جماعات المرابطين إلى المغرب الأقصى أشبه باندفاعة سلاجقة إلى بغداد ، وذلك لتخليص البلاد من عبث الزناتية وبغيهم وللأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بينهم .

ثم عبر المرابطون جميعا البحر إلى الأندلس ، مثلما اندفع السلاجقة إلى آسيا الصغرى ، وأحرز زعيمهم يوسف بن تاشفين النصر المعروف فى معركة الزلاقة ، عام ٤٧٩هـ .

ولم يغفل المرابطون عن الجنوب كما لم يغفل السلاجقة عن ما وراء النهر فكان الأمير الشرعى أبو بكر بن عمر يقود المجاهدين فى الجنوب ، وقد واستطاع بعد جهاد استمر أكثر من خمس عشر سنة أن يستولى على البقية الباقية من غانة وأن يضمها إلى دولة المرابطين الشاسعة ومات فى ميدان المعركة ودفن هناك وانتهت غانة من الوجود التاريخى فى غرب إفريقيا .

وقطع المرابطون بهذا كله شوطاً بعيداً فى إكساب غرب إفريقيا صبغته الإسلامية . إذ انفسح المجال أمام الطوارق لمزيد من الهجرات والاندفاعات ، تحت علم المرابطين ، فانتشروا صوب الشرق على حافة المنطقة شبه الاستوائية، مارين بمنحنى النيجر شمال نيجيريا الحالية، عبر مدن تشاده ثم بلاد الكانم والبرنو ودارفور .

وتركت هذا الحركات أثراً عظيماً فى انتشار الإسلام بين أهل البلاد الأصليين، فضلا عن جميع الشعوب المكونه لغرب إفريقيا .وهكذا أسلم فى عصر سيادة المرابطين السنغى والماندى والتكرور والسرير والحوصا وغيرهم .

وأسلم ملوك غانة وأخلصوا فى إسلامهم ، وعملوا بدورهم على متابعة الجهاد ونشر الإسلام بوسائلهم ، وتحولت غالبية الغانيين إلى الإسلام . وقام دعاة المرابطين بنشر الإسلام فى المنطقة الواقعة بين السنغال والنيجر، بل نشروا الاسلام على ضفاف السنغال ،وأسلم شعب التكرور والماندنجو، أما الشعوب التى لم تذعن فإنها فرت ما إلى الجنوب أو إلى الغرب .

وأصبح شطر كبير من غرب إفريقيا جزءاً من إمبراطورية المرابطين الذين جمعوا بين الأندلس والمغرب وغرب إفريقية فى وحدة سياسية واحدة ، وكان لأميرهم ، واسمه أمير المسلمين نائب فى الأندلس ، وأكثر من نائب فى المغرب ، ويخيل إلى أنه كان لهم نائب فى مدينة أودغشت ، وكان أولئك النواب يعيشون فى مقاطعاتهم كأنهم الملوك .

وفى ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة إلى غرب أفريقيا من مدارس المغرب والأندلس . وفى عهدهم تم أعظم مجهود فى الميدان الثقافى فى تاريخ غرب إفريقيا ، حينما أسست مدينة تنبكت التى أضحت حاضرة الثقافة العربية هناك ، وأدت نفس الدور الذى أدته القيروان فى تونس وفاس فى المغرب الأقصى .

وتأسست مدينة تنبكت فى آخر القرن الخامس الهجرى ، فيذكر السعدى

مؤلف تاريخ السودان أن الطوارق هم الذين اختطوا هذه المدينة. إذ كانوا يصيفون على ضفاف النيجير عند موقع المدينة ثم يرحلون فى الخريف إلى أوطانهم، ثم استقر بهم المقام على مقربة فى عهد دولة المرابطين، جئت نشأت المدينة نهائياً، وأضحت سوقاً هامة يؤمها التجار بطريق النهر وتصل إليها ، القوافل عن طريق مراكش . وسرعان ما أقتفى العلمـاء أثر التجار ، فشخصوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس، ومن مصر وغدامس وتوات . وبنى بها المسجد الجامع والمساكن والأسواق يقول السعدى فى وصفهما (ص ٢١) «مادنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلمـاء والعابدين ، ومألف الأولياء والصالحين » .

وامتد الإسلام إلى مدينة أخرى، كان لها فى تاريخ الإسلام والثقافة العربية مثل ما لتنبكت، وهى مدينة جنى التى أسلم أهلها فى القرن السادس، وأمها العلماء والفقهاء . ويذكر السعدى أنه كان بهذه المدينة أكثر من أربعة آلاف من المشتغلين بالعلم .

وقبل منتصف القرن الثانى عشر ، وفى ١١٤٥ م على وجه التحديد ، شهد المغرب تطوراً آخر قدر له أن يزيد حركة المرابطين تأصلا ورسوخاً، قامت دولة الموحدين على أنقاض نفوذ المرابطين فى المغرب والأندلس ، فكان هذا أشبه بقيام دولة المماليك المندفعة صوب النوبة والسودان ، ذلك أن ازداد ضغط الموحدين على قبائل الطوارق ، وتدفقت الهجرات إلى المنطقة على نطاق أوسع فهاجرت القبائل التى تكونت منها شعوب الحوصا إلى واحة أير ، ثم اندفعت إلى الجنوب مكونة إمارات الحوصا فى شمال نيجيريا، كما اندفعت قبائل أخرى صوب بلاد الكانم والبرنو، أو صوب دارفور .

وأدى هذا إلى مزيد من الاختلاط إذ كانت القبائل المهاجرة حتى ذلك الوقت تحيا حياة مستقلة، وتتخذ الطابع الحربى محافظة على كيانها وكان اعتمادها على الخيل يجعل نطاق أعمالها العسكرية واسعاً شاسعاً ، حتى إذا كان عصر الموحدين بدأ الاختلاط التدريجى عن طريق التزاوج، ونشأت طبقة جديدة من المولدين، وأحبت أن تستقل بشأنها بعد إسلامها، فأسست الإمبراطوريات، بعد أن تعلمت من سادة الأمس فنونهم العسكرية ونظمهم وتقاليدهم لاجتماعية والدينية .

كانت الظاهرة الجديدة نشأة دويلات إسلامية جديدة على أكتاف جماعات المولدين ، ولم يكن معنى هذا استبعاد نفوذ الطوارق نهائياً ، لأنهم ظلوا العامل المؤثر الفعال فى تاريخ البلاد ، فكانوا مستشارى الملوك ووزراءهم وقوادهم ، وأدت الدويلات التى ظهرت فى هذه المنطقة دوراً واضحاً فى تاريخ البلاد ، فكان ملوكها يعنون أكثر ما يعنون بالخروج إلى مكة للحج ، فى مواكب وفق رسوم معينة ، كما حرصت كل دويلة منها على تأكيد روح الأخوة الإسلامية ، عن طريق الاتصال بمصر المملوكية ، أو بمراكش فى عهد الشرفاء . وعملت كل هذه الدويلات على تشجيع اللغة العربية ، وحماية الثقافة ، وإيفاد الطلاب واستقدام الأساتذة ، كما التزمت سياسة الجهاد توكيد للروح الإسلامية التى غلبت عليهم ، ولذا نشأت فى كنفهم أنماط من الحضارة الإسلامية متأثرة بعاداتهم ورسومهم وتقاليدهم القديمة .

ومن هذه الإمبراطوريات التى نهضت وقتذاك إمبراطورية مالى وهى التى أسسها شعب الماندنجو الذى أسلم على يد المرابطين وبلغت هذه الإمبراطورية إلى إلى ذروة التوسع فى عهد منسى موسى (١٣٠٧ — ١٣٢٢) ، إذ نشر نفوذه شرقاً حتى بحيرة شاد ، ودخلت منطقة السافانا كلها فى ملكه ، وكانت له مراسلات وصلات مع مصر المملوكية . وزار ابن بطوطة هذه البلاد فى القرن الرابع عشر ، ورأى فيها حياة إسلامية أصيلة ، وعلماء من كل بلد إسلامى ، كما زارها ليو الإفريقى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ، فوجد حياة إسلامية فى غاية الازدهار ، ومن هذه الإمبراطوريات كذلك إمبراطورية سنغهاى وصلت إلى قمة التوسع فى عهد ملكها إسكى محمد عام ١٥١٣ ، ونهضت بنفس الدور الذى لعبه الماليون من قبل .

وكان من أنر جهود الطوارق عبر هذا التاريخ الطويل انطبعت أن الثقافة العربية فى المنطقة بطابع مغربى واضح ، إذ كانت المالكية مذهب الناس ، والمدارس مغربية بحته ، والكتب المتداولة هى كتب عياض وسحنون وموطأ مالك ، والقلم هو القلم المغربى . أى أن الثقافة كانت فى ثقافة مغربية على أرض إفريقية .

حسن أحمد محمود